الفصل الحادي عشر
رغد حسن أبو رضوان

إهداء

لِمَنْ عَبِثَ بعودِهِ وعورةَ الطّريقِ، ونزفَ من أشواكِ المسير...
لمن ناءتْ بهِ الأحمال ونبا مرقدُهُ...
لمن جرّتهُ السُّبُلُ إلى مكامنَ يجهلُ قرارَها وأثقلَتْ كاهِليه
وأخذَتهُ في نُزُوحٍ عن نفسِهِ؛ فبَعثرَت قداسةَ هُويةَ قلبَهُ
وطبعتْ النُّدوبَ على حواسِه.
لمَنْ تجرَّعَ تِرْياقَ الحُبِّ-أيّاً كان لونُه-واتخذَهُ نهجَ حياةً
وزرعَ في قلبِه موجاتٍ شتّى من الدقّاتِ والنّبَضاتِ فنبتَ
في روحِهِ وملامحِهِ وشكّل وقْعاً وسِحْراً في كلِّ قلبٍ آخَرٍ شدَّ
فضولَه ولامسَه.
لأولِ الأوطانَ وآخرِ المنافِي، لمنْ أمسَكَتْ بيدي لأقبِضَ على
القلمِ لأوّلِ
مَرّةٍ، لمن علّمتني كيف أكبُرُ وأتفرّدُ بطابعي الخاص،
لـسيدة عُمري الفاضلة؛ أُمّي.

ربّاهُ كيف أكون؟!

أتساءلُ دوماً....
كيفَ للقاءِ أعيُنٍ بأنْ يفعلَ كلُّ هذا!
بأنْ يُربِكَ نبْضاً، ويُخِلُّ توازناً، ويهُزُّ كياناً، ويصلِبُ أطرافاً، ويُقيّدُ جسداً هُياماً واعتصاراً!
كيفَ للقاءِ أعيُن يحجبُ أنفاساً لجزءٍ معدودٍ من الثّانيةِ ويسلِبُ إرادتها في كبحِ جماحِها ولا يأبه بمنازعاتِها!
كيف لهذا اللّقاء بأن يرتحلَ بشغافِ القلبِ وينقلها إلى عوالمَ من فوضى وإرباك للشعورِ؛ حيثُ تُسنُّ الفرصة هناك لالتحام لهفة الأرواح مولعةً ببريقِ تلك الأعينِ فهنا تتعانقُ الجفونُ والمُقلُ، وهنا يتجلّى حرمُ الصّمتِ في الهذيانِ.
كيفَ للقاءِ أعيُنٍ كادَ يهزِمُ كلّ ما فيك وكلّ ما تحملُ؛ إلى أن أشاحتْ عينٌ مكابرةً؛ لتندثِرَ بعدها العوالمَ وتتنهدُ الأرواحُ تلهثُ ملتقطةً أنفاسَها غيرَ مباليةً بغصَّةِ وتعاسةِ انطفاء ذاكَ البريقِ.

****

خريف الحب، ياسمين الروح

نسمات هواء تداعبُ الأرواحَ الباهتةَ، غيامٌ عادت لموطنها واحتضنت السّماواتِ، وِراقٌ ارتمتْ هُنا وهُناك قدْ حلّ خريفُها، تتسلّلها خيوطُ الشّمسِ بخفيةٍ مواريةٍ سرَّ خريفها.

وِراقٌ مُحمّلة بالأمنياتِ التي لطالما ارتوتْ بتمتماتِ الدّعواتِ والصلواتِ لِتُزْهِرَ وَتكون ولننعمَ بنشوةِ الوصولِ، وِراقٌ تُداري خيباتٍ وعثراتٍ أزهَقَتْ أرواحاً، وِراقٌ تجلسُ إزاءَها تطيلُ النّظرَ إليك، تبدو وكأنّها تواسيك وتحاولُ ترميم خَرَابِ روحك رُغْمَ ضَعْفِها وَقِلّة حيلتها، ورُغْمَ لُجوئها وشَتاتِها.

"لحظة مؤاخاة الحزن بين الإنسانِ والطبيعةِ"-على قَولِ أحلام مستغانمي-.

تخلعُ عنا زيفَ البهجةِ، تُخبرُنا بحَتميةِ الشُّحوبِ واستبدادِ الذّبول

لتبعثَ إلى نفوسَنا درساً في انقلابِ الموازينِ.

وِراقٌ تُحلِّقُ عالياً فعالياً؛ لربّما تَكِنُّ عطشَ حَنينٍ قد قَنطَ من أملِ اللّقاءِ والوصالِ فَهمَّ بالرّحيلِ.

خريفٌ خَيّمَ على صلابةِ عودِ ربيعنا وخُضرته.
أمطارٌ بلا موعد تُنعِشُ أرواحنا، اشتاقت لها شغافنا؛
لِتُجدّدَ أعواداً من الآمال تُعَلَّق عليها أمنياتنا الملازمة لنا
في جُعباتِ طريقنا للعملِ وعلى الوسادةِ قبل الاستسلامِ
للنومِ أو أن تلاحقَنا في منامِنا فنحْظَى بتذكرةِ سفر مؤقتة
إليها.
فهل سيحلُّ خريفٌ على ما أنبتته الأمطار أم سيكون ما
أنبتته ياسميناً؟

****

الأجدر بالحب

أمّا عَنْ سُكونِ النَّفسِ واعتدادِها فهو حرَمٌ مقدّس تبرّأَ وانخلعَ عن كلِّ فجٍّ للنّقصِ والفُتُورِ، ترفَّعَ عن كلِّ انحطاطاتِ غياباتِ جُبِّ المقارناتِ.

هو الإقامةُ والثّباتُ في مَنْفَى السّلامِ الدّاخليّ، حيْثُ لا تزعزُعاً ولا تأرجُحاً، حيْثُ تَنْجلِي الضّغائنُ ويتلاشَى طيْشُ المُشاحناتِ.

حينها تُشيَّدُ مُقَدّساتِ الرّوح من رغباتٍ وروتينٍ مُفضّل وأفكارٍ وتساؤلاتٍ، وتناغُماتٍ تستوطنُ انشغالاتِ وتُزاحِمُ أجزاءَ يومك لتحظَى بمُتَّسَعِ حقّها فيه.

حُبُّ ذاتك الحبُّ الوفيرُ بالأمان في ظلِّ مباغتةِ طَبعُ تقَلُّبَ القلوب، لا تردُّد ولا اختلاف ولا جدالَ في مسألةِ بأنّ المرءَ يدركُ نفسه إذا أحبّها وسارَ بين دواخلِها مُنَقّباً على مناخِها ومُسْتَقرّها، فيبلُغها ويُكرّسُ عُمرَهُ كما يُحبُّ وكما يجب أن يكون؛ تاركاً عبءَ صراعاتِ جَلَدِ الرُّوحِ ويبدأُ عهدُ التصالحُ معها مانحَةً قوّة المُجابهة لكلُّ ما يُثيرُها ويُعكّرُ صفوَها.

بعد كلِّ هذا قد يُشيرُ إليكَ بعض العذّال اللّذين ضاقت عليهم حُبُّ ذاتهم ويقولون: "ذاك المغرور، ذاك الأنانيّ، وذاك المُستأثر، ...."

انفث غُبارَ داءِ نَقصِهم عن كتفيكَ هازِئاً؛ وامضِ حيثُ تُرِيدُ رُوحك؛ حيثُ تَجِدُ نفسك.

****

على قدر الأمل تضمر الندبات

أنتَ لا تعرفُ قيمةَ ذاك الأملِ الّذي نحملهُ في صدورِنا، ليسَ بفكرةٍ أو سَرابٍ نحسبُه من شدّةِ الظمأ ماءً، ليس بقشّةٍ هشّةٍ نتشبثُ بها نخالُها ستنتشلُنا من قذفِ الأمواجِ وعُتوّ الرّياحِ في رحلةِ نصْبِ أشرعتنا.

هو من تجلّياتِ لُطفِ الله ورفقهِ، فمهّد لنا قِبلَةً نصرِّع وجهنا شَطرَها ونُتَمتِمُ بدعواتٍ أضرَمتها انهلالات الإيمانَ والأملَ والرّجاءَ، جعله عبادةً نُؤجرَ عليها، وأثلجَ صدورنا بوعدِهِ معاذَ الله أنْ يخيبَ وحاشاه بأنْ يَرمُدَ.

فسلامٌ على كلِّ العليلونَ بالأملِ...

سلامٌ على كلِّ من امتثلَ لأمرِ الله ووعدهِ الحقّ..

سلامٌ على مَنْ اقْتاتَه في تضوّراتِ الخَوَى...

سلامٌ على من سارَ فيه بيْنَ النّاسِ وأوصلَ تخبطّاتِ أرواحِهم إلى مرسَاه....

سلامٌ على مَن انتشى وقعهِ في جيبِ أيّامه....

سلامٌ على من اتخذه إشراقاً ونوراً في حُلكةِ وفوضويةِ أفكاره...

وسلامٌ على منْ كان خيارُهم في الحياةِ الدُّنيا" ما دامَ الأمل طريقاً فسنحيا." ما دمنا أحياءً نُرزق.

****

الحب على سجية وطن

جلَستْ تُدارِي وحدَتِها، نازعَتْنِي نفْسِي إليْها
أيَا رُوحي وراحتِي، مُدّي إليّ عقدَةَ خيوط نظَراتك الشّاردة
وابعثِ إليَّ أطرافك المزرقّةِ صقيعاً وقلقاً
وهاتِ عن طَيْفِ عينيكِ ثُقلِ كُلِّ هذه العَبَرَاتِ
ما إن قُلتُ ذاك إلّا وانهالَت وذَرفَت بين يديّ تشهقُ خوفاً وولَعاً
وقالَت: إنّي أخشى دُنياي دونَ يداكَ، أخشى دُنيايَ دونَ مُحياكَ الّذي أُحِبُّ، أخشى دُنياي إذا سُلِبَ وعدك لي رغماً عنْكَ، كما سُلِبَ الوطن مِنّاً.
فقلْتُ: يا مُهجَتِي أنا أَمضِي وأثُورُ لأجلِ قَضِيّةِ الوَطَنِ وسَلامِهِ ولِأجلِ قضيّةِ عينيّكِ.
تُساوينِ عندي الوطنَ بأكملِهِ، ولا أحملُ في قلبي إلّا كما.
تُرانِي أتخَلّى عن الوطنِ وأترِكُ قضيتَه؟!
تُرَانِي أنقُضُ عهدَ هاتينِ الحبيبتيْنِ؟!
تا لله لن أجرؤ على ذاكَ حتّى في أضغاثِ الوسوساتِ.
قلبُهُ يشتَعِلُ بالمقاومةِ والثّباتِ...
عيناهُ يبرُقانِ بإصرارِ إرادةَ الحياةِ..

لِيرُدَّ عليْهِ برقِ ورعدِ السّماءِ باستجابةِ القَدرِ؛ فبثَّ اشتعالَ قلبُه في أرضِ المعركةِ مُجَابِهاً صَامِدَاً واحتمى بصخرَةٍ ما زادته إلّا صلابةً أمام زخّات الرّصاصِ وبغي العدوِّ كما تفعل هي مع وقعِ غزارةِ المَطرِ.

ذاكَ الحبِّ وذاكَ العهْدِ رُغْمَ اعتصارِه لقلبِه ولعَاً إلى أنّه يدفعُ روحُه لعنانِ مواصلةِ نيرانِ المجابهةِ..
يحملُ في قلبِه عهدَ وطنٍ وعهدَ حب
فكلا العَهْدان ينضبانِ من ذاكَ الأبهرِ.
لمعَ خاتِمها من بعيدٍ في جثامينِ الشهداء فركضَ إليها:
أَمسكَ على خاتمِها وعلى قلبهِ وأجهشَ قائلاً: أعاندُ الرَّصاص والمدفعيةَ أعاندُ البارودَ والأعَادي، أعاندُ وسوسات اليأس والاستسلامِ، أعاندُ الركوعَ والرُّضوخَ لأجلكِ، لأجل عينيّكِ، لأجلِ خاتمَك المعقودِ بقلبيْنا، لأجلِ روحك
أما تُعاندينَ الاحتضارَ وتجيئينَ لاحتضانِي
غسّلها بدموعهِ ووارى جثمانَها بأنّاته وقهرهِ
وهمسَ لها:

لم أنالك بعهدي في فناءِ الدُّنيا لكنّنا عند عهدِ الله لا نخيب
سألقاكِ هُناك حيث لا نقْضٍ للعهودِ ولا حروبٍ، ردّد كثيراً " أحبّكِ يا مُهجَتِي" كما تُحبُّها.

****